ALL !N مع جوردان إيزلي

تأثيرٌ لا يتزعزع

لا يتزعزع | الجزء الثاني | ١ تسالونيكي ١:٢-١٢

مقدّمة

نحن نعيش في عالمٍ يبدو فيه أن الجميع يريدون أن يكونوا مؤثّرين. يكبر الأطفال وهم يقولون إنهم يريدون أن يصيروا نجوم يوتيوب، ويعيش الناس على إنستغرام ويصنعون محتوى لتيك توك والبودكاست، واليوم تُبنى مهنٌ كاملة حول المتابِعين والإعجابات والمشاهدات والظهور. بعض أكبر المؤثّرين في العالم يستطيعون الوصول إلى ملايين الناس بمنشورٍ واحد، وفيديو واحد أو تغريدة واحدة أو مقطع واحد ينتشر حول العالم في ثوانٍ. ولأن هذا هو العالم الذي نعيش فيه، فإن معظمنا حين يسمع كلمة تأثير يفكّر تلقائيًّا في المنصّات والشهرة والوصول. نحن نقيس التأثير بعدد الناس الذين يعرفون اسمك، أو بعلوّ صوتك، أو بحجم جمهورك.

لكن قلّة من الكلمات في ثقافتنا أُسيء فهمها أكثر من كلمة تأثير، لأن الكتاب المقدّس يُعرّفها بطريقةٍ مختلفة تمامًا عن العالم. في ملكوت الله، التأثير لا يتعلّق بأن تكون مشهورًا، بل بأن تكون أمينًا. لا يتعلّق بعدد الذين يتبعونك، بل بمدى وضوح رؤية الناس ليسوع من خلالك. في ١ تسالونيكي الإصحاح الثاني، يرفع الرسول بولس الستار ويُرينا كيف يبدو التأثير الروحيّ الحقيقيّ والدائم، لا تأثيرًا مبنيًّا على الضجيج أو الشخصية، بل تأثيرًا متجذّرًا في شخصية المسيح ومُعاشًا عبر الزمن. تذكّر العالم الذي كان بولس يكتب إليه: لم تكن تسالونيكي بلدةً دينيةً هادئة، بل كانت مدينةً كبرى على طريق إغناتيا، الطريق الرومانيّ الرئيسيّ الذي يربط الشرق بالغرب، وكانت موالية لروما بشدّة، حيث كانت عبادة الإمبراطور متوقَّعة. فحين كان بولس يكرز «يسوع هو الربّ»، لم يكن ذلك مجرّد لغةٍ دينية، بل كان تحدّيًا سياسيًّا ضدّ قيصر وضدّ الثقافة. جاء الاضطهاد سريعًا، وشكّك المنتقدون في دوافعه ورسالته وشخصيته. لكن بدل أن يدافع عن نفسه بغضب، يُذكّر بولس الناس ببساطة بكيفية عيشه بينهم، مشيرًا إلى ثمر تأثيره كمثالٍ للكنيسة، ولنا. وبينما نسير في هذا المقطع، يُرينا بولس أربع علاماتٍ للتأثير الروحيّ الذي لا يتزعزع.

النقاط الرئيسية

١. شجاعةٌ لا تتراجع

«لأنكم أنتم أيها الإخوة تعلمون دخولنا إليكم أنه لم يكن باطلًا، بل بعدما تألّمنا قبلًا وبُغي علينا كما تعلمون، في فيلبّي، جاهرنا في إلهنا أن نكلّمكم بإنجيل الله، في جهادٍ كثير» (١ تسالونيكي ١:٢-٢). وصل بولس إلى تسالونيكي قادمًا مباشرةً من فيلبّي، المدينة التي قُبض فيها عليه وعلى سيلا دون محاكمة، وجُرّدا من ثيابهما علنًا، وضُربا بالعصيّ (وهو أمرٌ كان غير قانونيٍّ بحقّ المواطنين الرومان)،

وأُلقيا في السجن الداخليّ مع تثبيت أقدامهما في المقطرة. فحين يقول بولس «بُغي علينا»، فهو لا يُلطّف الكلام، بل يصف جراحًا مفتوحة وندوبًا باقية. تذكّر الناس الحال التي كان عليها حين ظهر، ولذلك استطاع أن يقول: «أنتم تعلمون».

معظمنا لم يمرّ بشيءٍ كهذا، لكن كثيرين منّا يعرفون معنى أن يظهروا في مكانٍ ما وهم يحملون أكثر مما يراه الناس. ذهبتَ إلى العمل، ودخلتَ الكنيسة، وجلستَ إلى المائدة، وكنتَ ظاهريًّا حاضرًا، لكنك داخليًّا كنتَ منهكًا، لا تزال تحمل ثقل أمرٍ حدث للتوّ. تلك هي الحالة التي كان بولس يعيشها، منهكًا جسديًّا وعاطفيًّا وحتى روحيًّا. لكن لاحظ أنه حتى بعد كلّ الألم والعقاب، لم يُوقف بولس الرسالة، ولم يتراجع ليتعافى، ولم يُلطّف الكلمة. يقول إنه «جاهر في إلهنا». هذه الكلمة لا تعني أنه شعر بأنه بلا خوف، بل تعني أن الله منحه الشجاعة حيث كان هناك كلّ سببٍ للاستسلام. الأجساد نفسها التي ضُربت في فيلبّي وقفت الآن في تسالونيكي وكرزت من جديد. لم يتقدّم الإنجيل لأن المقاومة توقّفت، بل تقدّم لأن الطاعة استمرّت. هكذا يُبنى التأثير الروحيّ الحقيقيّ، لا في مواسم الراحة، بل بالتقدّم بالإيمان حين يبدو التراجع هو المنطقيّ.

٢. قناعةٌ لا تساوم

«لأن وعظنا ليس عن ضلال، ولا عن دنس، ولا بمكر» (١ تسالونيكي ٢:٣). في العالم القديم، كان المعلّمون المتجوّلون في كلّ مكان، وكثيرون منهم كانوا محتالين يُحرّفون الحقّ لمنفعتهم الشخصية ويقولون للناس ما يريدون سماعه ليبنوا جمهورًا ويجمعوا المال. لذا ينظر بولس إلى أهل تسالونيكي في عيونهم ويقول: «أنتم تعرفوننا. تعرفون حياتنا. تعرفون دوافعنا. ليس هذا ما نحن عليه». كان بولس قد حسم سؤالًا جوهريًّا قبل أن يدخل تسالونيكي بوقتٍ طويل: كان قد قرّر مَن هو جمهوره الحقيقيّ. وفي مرحلةٍ ما علينا جميعًا أن نجيب عن السؤال نفسه. لمَن أعيش لأُرضي؟ عائلتي، زوجي، رئيسي، أولادي، نفسي؟

يُجيب بولس في العدد الرابع: «بل كما استُحسنّا من الله أن نؤتمَن على الإنجيل، هكذا نتكلّم، لا كأننا نُرضي الناس بل الله الذي يختبر قلوبنا». عاش بولس لجمهورٍ من واحد، وهو يخبرنا لماذا. أولًا، لأنه استُحسن من الله، ما يعني أن هويّته لم تتشكّل بالتصفيق أو الاستحسان أو القبول، بل كانت قد تحدّدت سلفًا من الله. ثانيًا، لأنه ائتُمن على الإنجيل. تلك العبارة تخبرنا أن الإنجيل لا يخصّنا، بل يخصّ الله، وهو يأتمننا عليه. إن سلّمك أحدهم شيئًا هشًّا وثمينًا ليس لك وقال: «أنا أأتمنك عليه»، فإنك تتعامل معه بطريقةٍ مختلفة. لا تجعله خاصًّا بك، ولا تُعدّله، ولا تستخدمه للفت الانتباه إليك، بل تحميه. وهكذا، الإنجيل ليس لنا لنُضعفه أو نُعيد تشكيله ليناسب أعرافًا ثقافيةً جديدة. لذلك يرسم بولس خطًّا واضحًا: نحن نتكلّم لنُرضي الله، لا الناس. في اللحظة التي يصير فيها هدفك إرضاء الناس، ستبدأ رسالتك بالتحوّل، وستلين نبرتك، وستُفسح قناعتك المجال للحذر، وستبدأ شجاعتك بالانكماش. لكن حين يكون هدفك إرضاء الله، يصير تأثيرك ثابتًا حتى حين يبدأ العالم بالتزعزع.
ويخبرنا بولس لماذا هذا مهمّ جدًّا: الله «يختبر قلوبنا». هذه الكلمة كانت تُستخدم لاختبار المعادن تحت حرارةٍ شديدة، حيث يطفو الحقيقيّ إلى السطح ويُكشف المعيب. قد لا يعرف العالم قلبك أبدًا، لكن الله يعرفه. هو لا يسمع فقط ما نقوله، بل يزن لماذا نقوله. فربما قبل أن نصلّي: «يا ربّ، اجعلني أكثر تأثيرًا»، يحتاج بعضنا أن يصلّي: «يا ربّ، طهّر قلبي». التأثير الروحيّ الذي لا يتزعزع يتدفّق من قناعةٍ لا تساوم.

٣. حنانٌ لا يتلاعب

«فإننا لم نكن قطّ في كلامٍ بالتملّق كما تعلمون، ولا في علّة طمعٍ، الله شاهد، ولا طالبين مجدًا من الناس» (١ تسالونيكي ٢:٥-٦). يُقارن بولس خدمته بالأساليب المعتادة للتأثير في ثقافته، حيث كان التملّق شائعًا، والطمع متوقَّعًا، والترويج للذات أمرًا مُسلَّمًا به. أولئك المعلّمون المتجوّلون كانوا يقولون للناس ما يريدون سماعه، ويمكثون بما يكفي للاستفادة فقط، ويمضون حين يصغر الجمع وينضب المال. يقول بولس: «ليست هكذا جئنا إليكم». حتى إنه يعترف بأنه كان يستطيع أن يستخدم ثقله كرسول، لكنه بدل ذلك اختار ألّا يتّكئ على سلطته. انظر إلى العدد السابع: «كنّا مترفّقين في وسطكم». يقول كنّا نستطيع أن نكون قساةً ومطالِبين، لكننا بدل ذلك كنّا مترفّقين.

معظمنا يفهم الفرق الذي يُحدثه ذلك. فكّر في المدرّبين أو الرؤساء الذين مرّوا بحياتك. بعضهم حاول أن يقود بالضغط، وآخرون قادوا بالحضور. بعضهم حاول أن يُحفّز بالخوف، وآخرون حفّزوا بالثقة. تأثير بولس لم يأتِ من القوّة، بل من الاهتمام. وقد وصف ذلك الاهتمام بصورةٍ مؤثّرة، قائلًا إنه كان «كما تُربّي المرضعة أولادها». المرضعة لا تتعجّل، ولا تتلاعب، ولا تتظاهر، بل تبذل نفسها بصبرٍ وتضحيةٍ ودون أن تنتظر شيئًا في المقابل. ثم كشف بولس القلب وراء كلّ ذلك في العدد الثامن: «هكذا إذ كنّا حانّين إليكم، كنّا نرتضي أن نعطيكم، لا إنجيل الله فقط، بل أنفسنا أيضًا، لأنكم صرتم محبوبين إلينا». أعطاهم كلمة الله، لكنه أيضًا شارك حياته. تلك العبارة هي نبض المقطع كلّه، لأنك إن شاركت الحقّ دون أن تشارك حياتك، فنادرًا ما يقود ذلك إلى تغييرٍ حقيقيّ. التأثير الروحيّ الذي لا يتزعزع يتدفّق من حنانٍ لا يتلاعب.

٤. ثباتٌ لا يتظاهر

«فإنكم تذكرون أيها الإخوة تعبنا وكدّنا، إذ كنّا نكرز لكم بإنجيل الله، ونحن عاملون ليلًا ونهارًا، كي لا نُثقّل على أحدٍ منكم» (١ تسالونيكي ٢:٩). يُذكّرهم بولس بالكدّ. عمل، وضحّى، وثبت. ثم يقول: «أنتم شهود، والله أيضًا». بعبارةٍ أخرى، رأيتم حياتي، لكن الله رآها أيضًا. عاش بولس علنًا بالطريقة نفسها التي عاش بها في الخفاء، الرجل نفسه حين كان الناس ينظرون وحين كان الله وحده ينظر. هذا هو السؤال الذي يُجبرنا هذا المقطع على مواجهته: لو طُلب من الناس الذين يعرفونك أكثر من غيرهم أن يصفوا حياتك، فماذا سيقولون، وماذا سيقول الله بعدها، إذ يرى ما لن يراه أحدٌ آخر أبدًا؟

كان بولس يكتب إلى أناسٍ شاهدوا بأنفسهم كيف عاش، «بطهارةٍ وبرٍّ وبلا لومٍ» (العدد العاشر). كان له تأثيرٌ عظيم، لا لأنه عاش بكمال، بل لأنه عاش بثبات. لاحظ أنه لم يقل «أنتم مشاهدون»، بل قال «أنتم شهود». الشاهد لا يُخمّن، الشاهد يشهد، ولا يمكنك أن تشهد لأمرٍ لم تختبره قطّ. والأمر نفسه صحيحٌ لنا روحيًّا. إن لم تكن تسير مع يسوع، فلن تكون شاهدًا مُقنعًا ليسوع. إن لم تكن تقضي وقتًا معه، مُصغيًا إليه وتابعًا له، فحين تأتي لحظة الكلام، لن يكون لديك الكثير لتقوله، لأنك لن تتكلّم من اختبار. بعضكم يحبّون يسوع، لكن تأثيركم صار هادئًا. ما زلتم هنا، وما زلتم أمناء، لكنكم متعبون، وفي مكانٍ ما على الطريق بدأتم تقيسون التأثير بالظهور بدل الأمانة. لم يطلب الله منك قطّ أن تكون مشهورًا، بل طلب منك أن تكون أمينًا. وهنا الدعوة الأعمق: لن يكون لك تأثيرٌ لا يتزعزع حتى تختبر المخلّص الذي لا يتزعزع بطريقةٍ حقيقية. يسوع عاش بأمانة، ومات ذبيحةً، وقام منتصرًا، وهو

لا يزال يُنقذ، ولا يزال يغفر، ولا يزال يُغيّر. إن رجعت إليه اليوم، فلن يُغيّر أبديّتك فقط، بل سيُثبّت حياتك ويبدأ بتشكيل تأثيرك من الداخل إلى الخارج.

أسئلة للتأمّل

1. استمرّ بولس في الكرازة في تسالونيكي حتى وهو يحمل جراحًا حديثةً من فيلبّي، «مجاهرًا في إلهنا» بدل أن يشعر بأنه بلا خوف. أين في حياتك يطلب الله منك أن تستمرّ في التقدّم بالطاعة حين يبدو التراجع أكثر منطقية؟
2. عاش بولس لجمهورٍ من واحد، عالِمًا أن الله «يختبر قلوبنا». بصدق، استحسان مَن أنت أكثر عُرضةً للسعي وراءه، وما الذي سيتغيّر هذا الأسبوع لو صار هدفك الحقيقيّ أن تُرضي الله بدل الناس؟
3. شارك بولس لا الإنجيل فقط بل حياته أيضًا، وصار الناس شهودًا، لا مجرّد مشاهدين، لكيفية عيشه. مَن هم الناس الذين يراقبون حياتك عن قرب، وكيف سيبدو أن تُؤثّر فيهم من خلال الاهتمام الحقيقيّ والثبات بدل الضغط أو التظاهر؟